الصفات الخبرية بين المثبتين لها والنافين

بقلم الأستاذ الدكتور

عبد المعبود مصطفى على سالم

أستاذ مساعد بقسم العقيدة والفلسفة

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتـــــــــاح

باسمك اللهم نفتتح هـــذا المقال فى بحث من بحـــوث العقيدة

فى الصفات الخبرية بين من أثبتها ومن نفاها

ولقـــد كانت مسألة الصفات من المسائل التى أخـــذت جـــدالا عنيفا بين المتكلمين والفلاســفة وبين المعتزلة وأهل السنة على حـــد سواء فريق يثبتها وفريق ينفيها وهكذا احتدم النزاع فى هـــذه المسألة لـــذا أحببت أن أدلى بدلوى فى هـــذه المشكلة التى تتعلق بذات الحـــق جل اسمه واخترت الحـــديث عن الصفات الخبرية أبين للقارىء الكريم أنها أخـــذت جـــدالا ونقاشا حادا بين علماء الكلام حيث أثبتها قوم ونفاها آخرون على حين وقف البعض موقف التسليم وتفويض علم معرفة ذلك لله عز وجل ولنبدأ بعون الله تعالى الحـــديث مستلهمين منه الرشـــاد والعون ان شاء الله تعالى فنقول :

الصفات الخبرية بين المثبتين لهـا والنافين

مقـــــدمة

قبل الخوض فى هـذه المشكلة الشائكة نستطيع أن نقرر بشيء من الايجاز أن أهـل السنة رضوان الله عليهم أجمعين لم يكونوا ابدا مشبهين شأن المجسمة والمشبهة ولم يكونوا معطلين شأن الفلاسفة والمعتزلة فلقد أثبتوا للذات العلية المقـدسة صفات كمالية وأخرى جلالية بمـا يليق وعظمة ربنا تبارك وتعالى وما يتفق وجـلال هـذه الذات المقـدسة المنزهة « **تبارك اسم ربك ذى الجـلال والإكرام** »(١) بحيث كان لهم عند اثبات هـذه الصفات منهجهم الخاص بهم وطريقتهم التى تميزوا بها عند حـديثهم فى هـذه المسألة المهمة .

وباختصار نقول : انهم أثبتوا الصفات على أنها شيء والذات شيء آخر على أنه ممـا تجـدر الاشارة اليه فى هـذا المقام ان هـذه القضية وأقصد بها اثبات الصفات للذات هى قول قديم وليس مستحدثا فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ومن بعـدهم السلف الصالح والخلف العـدول يثبتون الصفات لله تعالى ، نعم لم يستعملوا فى استدلالاتهم تلك البراهين المنطقية التى تسلح بها من بعـدهم من المتكلمين تلك التى اكتسبوها من أهـل العصر أو الزمن الذى عاشوا فيه ولم يخرج عن هـذه القاعـدة (اثبات الصفات للذات) الا نفر من المعتزلة وكذلك الفلاسفة وهى القضية التى يرجع تاريخها الى عهد واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال فهى فكرة اسلامية نشأت فى عصر مبكر وان كان فى الامكان أن نقول انها تأثرت الى جانب الاصل الاسلامى بمـا تطلبه النقـد والدفاع بين الاسـلام وخصومه من أصحاب الديانات والملل والنحل المختلفة الصابئة عن الاسلام والخارجة عنـه .

وللأشعرى كلام وجيه فى هـذا الشأن حيث يذكر أن المعتزلـه

---

(١) سورة الرحمن آية رقم (٧٨) .

آخـذوا رأيهم فى ذات الاله تعالى عن الفلاسفة الاقـدمين لكن خـوف السيف منعهم من الجهـر بذلك صراحة فقـد أبانوا عن معناه بنفى الصفات ، وقـد ذكر فى معرض كلامه أن أبا الهـذيل العلاف آخـذ رأيه فى ذات الاله عن أرسطاطاليس الذى قال فى بعض كتبه ان البارى علم كله قـدرة كله ، حياة كله فقـد أعجب أبو الهـذيل بهـذا الرأى فقرر مذهبه الذى ارتضاه فى شأن الصفات فقال : ان علمه هـو هـو وقـدرته هـو هـو واذا سئل أتقول ان لله علما أجاب بأن لـه علما هـو هـو وأنه عالم بعلم هـو هـو هكذا قـوله فى سـائر الصفات الالهيـة(١) ٠

على أية حال فان تحقيق المقام فى هـذه المسألة لا يعنينا أكثر من ذلك هنا اذ أنه ليس من غرضنا الآن وكل ما نريد أن نجليه أمام القارئ الكريم هـو أن أهـل السنة أثبتوا لله تعالى صفات قـديمة أزلية قائمة بذاته تعالى ثبتت له بالنقل وتأيدت بالعقل كالوحـدانية والوجود والبقاء والمخالفة للحوادث والقـدرة والارادة والعلم الحياة والسمع والبصر والـكلام ٠

والسؤال الآن المطروح على الاذهان هل هناك صفات أخرى لله تعالى عـدا تلك الصفات المشهورة السابقة ؟؟ هـذا سؤال نريد الاجابة عنه الآن وهو ما عقـد نااه هـذا البحث ان شاء الله تعالى ٠

الصفات الخبرية ورأى العلمـاء فيها :

يرجع اثبات الصفات الخبرية من اليد والعين والقـدم والاستواء وما شابهها الى عهـد الشيخ ابى الحسن الاشـعرى الذى تكلم فى النصوص التى توهم التشبيه فى جانب الحق تعالى من اليد والعين الى آخر ووصفها بأنها صفات ثبوتية ثابتة للرب تعالى زائدة على ماله من صفات المعانى السبع المشهورة والمذكورة فى كتاب الله تعالى(٢) ٠

(١) راجع الاشـعرى ــ مقالات الاسلاميين ــ ج ٢ ص ٤٨٣ ، ٤٨٥ طبعة استانبول سنة ١٩٣٨ م ٠

(٢) انظر الايجى ــ شرح المواقف ــ ج ٨ ص ١١٠ طبع دار الكتب سنة ١٩٠٧ م ٠ ايضا الآمدى ابكار الافكار ص ٥٧ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٦٠٣) علم الكلام ٠

فهو بهذا قد رسم الطريق لتلامذته من بعده من علماء أهل السنة كالباقلانى والاسفراينى وغيرهما ممن اعتنقوا مذهبه ودافعوا عن آرائه بكل ما يملكون من وسائل الاقناع(١) •

وعليه نقول أن دعوى أهل السنة من عصر الأشعرى حتى عصر الجوينى أن هذه النصوص التى توهم التشبيه ليست على حقائقها فهو تعالى — ••• ليس محلا للحوادث وانما هذه النصوص التى يذكر فيها اليد والوجه الى آخر ما هى إلا : صفات ثابتة لذات الاله — تعالى — زائدة على ماله من صفات الكمال والجلال ودعواهم فى ذلك قوله تعالى : « ويبقى وجه ربك »(٢) •

ويقاس على ذلك بقية النصوص التى فى المعنى(٣) •

اذن نقول ان أول من أثبت هذه الصفات الخبرية وشرحها على هذا الوجه هو امام أهل السنة والجماعة : الشيخ/ابو الحسن الأشعرى : رضى الله عنه — كما سبقت الاشارة اذ لم يسبقه احد فى ذلك الراى وتبعه أئمة المذهب حتى عصر الجوينى •

أما المشبهه والمجسمه فقد ذهبوا الى أن تلك النصوص على حقائقها ولا تؤول فلله على رأيهم جسم وصورة وهيئة وعضو وجهه **ولا دليل لهم على ذلك سوى انهم جمعوا من كتاب الله — تعالى — وسنة نبيه — صلى الله عليه وسلم — ما يؤيد مدعاهم تعالى الله عن ذلك علو كبيرا(٤)** وهذا فى الحق راجع الى ضيق افقهم وضعف عقولهم عن التفكير السديد اذ لا يصلحوا أن يكونوا فى عداد العلماء •

---

(١) راجع الشهرستانى — الملل والنحل على هامش كتاب الفصل لابن حزم ج ١ ص ١٣٦ طبعة سنة ١٣١٧ م •

(٢) سورة الرحمن آية رقم (٢٧) •

(٣) انظر بالتفصيل أبكار الأفكار ص ٥٧ شرح المواقف ج ٨ ص ١١١ .

(٤) قارن شيخ الاسلام ابن تيمية شرح العقيدة الواسطية ص ٤٦ وما بعدها بتعليق د. محمد خليل هراس . طبع دار الاعتصام طبعة رابعة ايضا شرح الموقف ج ٨ ص ١١١ وما بعدها .

وهكذا شبهوا الله ــ تعالى ــ بخلقه وخالفوا كل الفرق الاسلامية التى نفت ذلك بالنقل والعقل اذ لم يذهب هــذا المذهب سوى المشبهة والمجسمة والحق يقال : ان السلف الصالح رضوان الله عليهم من عهد النبى صلى الله عليه وسلم فمن بعــدهم وكذلك المحــدثون والفقهــاء كانوا لا يعرفون التأويل أو التشبيه بل كانوا يميلون الى التنزيه مــع امرارها على ظواهرها .

ومن أقوالهم المشهورة : أمروها كما جاءت(١) أى أن من رأيهم عــدم التعرض لتلك النصوص بالتأويل أو بيان المراد بل تفويض أمر معرفتها الى الله ــ تعالى ــ مــع الايقان باستحالة الظاهر فى جانبه تعالى وامرارها على ما هى عليه(٢) .

ولم نسمع أبدا أو نقرأ عن أحــد من صحابة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أو التابعين ــ رضوان الله عليهم ــ أنه سأل عن متشابه القرآن سوى ما كان من : صبيغ بن عسل الذى سأل سيدنا عمر ــ رضى الله عنه عن متشابه القرآن فعلاه سيدنا عمر بالدرة حتى أدمى رأسه عندئذ قال : حسبك يا أمير المؤمنين فقــد ذهب والله ما كنت أجـــده برأسى ، أى زال ما كنت أجــده من وساوس وظهر الحــق فالتنزيه واجب فى حقــه ــ تعالى ــ(٣) .

واستمر الحال على هــذا الوضع من التفويض وعــدم التأويل مع استحالة الظاهر فى حقه تعالى حتى اختلط العرب مع غيرهم من أهل الشعوب الاخرى واختلطت الحضارات فى العصر الذى اتسعت فيه رقعة الدولة الاسلامية ودخل الكثير منهم فى الاسلام بعضهم أخلص

---

(١) النهرى كتاب فيه شرح لمع الأدلة ص ٣٧ مخطوط بدار الكتب تحت رقم (٢٥٥) .

(٢) القرطبى التفسير ج ٤ ص ١٤ دار الكتب سنة ١٩٣٧ م أيضا البغدادى الفرق بين الفرق ص ٣٢ طبعة بغــداد .

(٣) التفسير للقرطبى ج ٤ ص ١٥ أيضا التبصير فى الدين ص ٢ طبعة سنة ١٩٥٥ م .

النية لله ــ تعالى ــ وبعضهم دخل وصولية ونفاقا وحقــدا على الاسلام يريد الدس والوقيعة .

من هنا تعـددت الفرق واختلفت الآراء لكن كان الرأى السائد هــو : ما ذهب اليه السلف « عـدم التأويل » فيما عـدا المعتزلة والكرامية والرافضة[1] .

ويوضح هــذا المذهب : قول منسوب الى الامام مالك رضى الله عنه : « الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة »[2] . فهم على سبيل المثال يرون : أن الاستواء فى اللغــة له معان معلومة كالاستقرار والقهر والغلبة **والذى لا شــك فيه أن واحــدا من هــذه المعانى يجب اثباته لله تعالى ــ** لكن تعيين واحــد منها أو بعضها ليس معلوما لنا على التعيين أو على سبيل القطع فالواجب علينا اذن أن نصدق مع التسليم بحقيقة علمه لله ــ تعالى ــ اذ أن التأويل أمر مظنون وقــد اتانا المنع من التأويل على لسان المعصــوم ــ صلى الله عليه وسلم فى كتابه العزيز فى قوله عز اسمه :

« فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا »[3] .

يضاف الى ذلك أن التأويل فيه فتح لابواب المشبهات وتدخل الآراء الشخصية والأهــواء المتعــددة كشبهة المجسمة وآراء المشبهة وفكر الزنا دقــة وغير ذلك[4] .

---

(1) التبصير فى الدين المرجع السابق والصفحة .
(2) الشهرستانى الملل والنحل على هامش كتاب الفصل ج ١ ص ١١٧ .
(3) سورة آل عمران آية رقم « ٧ » .
(4) الملل والنحل ج ١ ص ١٢٨ أيضا الفهرى كتاب فيه شرح لمع الادلة ص ٣٧ مخطوط مرجع سبق ذكره .

فهل يقف أهل الحق موقف المتفرج من هذه النحل والفرق ؟؟ أم يعملون الفكر ويدافعون بالحجة والبرهان ؟؟ وهذا ما كان بالفعل فقد حملوا على تلك الفرق الضالة ونظروا الى تلك النصوص (الموهمة للتشبية) موقفا يليق بجلال الله تعالى اذ أبطلوا آراء المشبهة والمجسمة والمعطلة وأفحموهم بقوة البرهان وناصع البيان ، أما الاشعرى فقد نقد فكرتهم ودعم ذلك بالاقيسة الاصولية والادلة الكلامية تلك التى تعلمها من خصومه المعتزلة فقد تتلمذ على يد أبى على الجبائى أربعين عاما وبعدها ترك مجلسه واتجه الى تأسيس المدرسة الاشعرية التى تناصر قضايا الدين والدفاع عن العقيدة وابطال اراء الخصوم ودحض قول الحرورية والجهمية وغيرهم من هنا عدوه ناصر السنه ومحيى الملة(١) .

وقد عد مذهبه مذهبا وسطا بين المعتزلة الذين مالوا الى التعطيل وأولوا النصوص اذ أبانوا عن معانيها فعندهم اليد مثلا كناية عن القدرة والنعمة والوجه كناية عن الوجود والاستواء على معنى الاستيلاء الى غير ذلك من تلك النصوص التى فى هذا المعنى(٢) .

وبين الحشوية الذين يرون أن اليد عبارة عن يد جارحة والوجه وجه صورة والاستواء على معنى الجلوس والاستقرار ، وهكذا الى آخر ما ذكروا ...

فالاشعرى وتلامذته من بعده حتى عصر الجوينى يسلكون طريقا يعتبر مسلكا وسطا بين أولئك وهؤلاء . أى لم يكونوا معطلين ولم يذهبوا مذهب التشبيه(٣) .

فقد كانوا رحمهم الله تعالى يرون أن الوجه صفة من صفات الله

---

(١) السبكى طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ٢٤٥ وما بعدها طبع القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .
(٢) مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٧٨ ، ج ٢ ص ٢٥٢ .
(٣) راجع العقيدة الواسطية ص ٨٨ ، ٩٠ .

تعالى زائدة على ماله من صفات المعانى السبع وبالمثل اليد والعين الى آخر كما سبق البيان وعلى القارىء الكريم أن يرجع الى كتبهم وما ذكروه فى هـذا المقام الذى نحن بصـدد الحـديث عنه الآن ليرى بنفسه أنهم جميعا ذهبوا هـذا المسلك على سبيل المثال نرى القاضى الباقلانى يرتضى هـذا الطريق الوسط ويدعم ما ارتضـاه بالحجج والبراهين فعنده أن الوجه : صفة ثابتة للرب ـ تعالى ـ زائدة على ما دلت عليه دلالات العقول وبالمثل : العين كذلك واليد ولـه فى ذلك حجج شهيرة ذكرها فى كتبه فليرجع اليها من أراد المزيد وبالمثل : الشيخ أبو اسحاق الاسفراينى الذى يعتبر جهبذا من جهابذة علم الكلام يرتضى طريق أستاذه أبى الحسن الاشعرى فى هـذه المسالة(١) .

وخلاصة القول فى هـذا الموضوع : أن الاشعرى ومن بعـده من أئمـة المذهب كالباقلانى والاسفراينى حتى عصر الجوينى قـد اتفقوا جميعا على الرأى القائل بان : تلك النصوص تعتبر صفات للذات العلية زائدة على ما دلت عليه دلالات العقـول أى أنهم لم يكونوا مفوضين شأن السلف أو معطلين شأن المعتزلة والفلاسفة ولم يكونوا مشبهين شان المجسمة ومن سارة سيرتهم السيئة بل وصفوها على أنها صفات زائدة على الذات وهـو ما اتضح لنـا وظهر جليا بعد الرجوع الى مصنفاتهم التى تركوها لنا ولعل القارىء الكريم يرى أننى أكدت مرارا وذكرت ذلك تكرارا لكن لـماذا كل هـذا التأكيد ؟؟ والحق أقول لنـا وقفة تأمل ونظر فلقـد وجـدت أن المتأخرين ممن كتبوا فى علم الكلام والتوحيد يشككون فى هـذه الحقيقة التى توصلنا اليها سابقا وهى أن علماء المذهب لهم رأى واحـد فى المسألة وهـو وصفها أى النصوص على أنها صفات للرب تعالى فعند المتأخرين من علماء هـذا الفن أن الاشعرى وأئمة المذهب وتلامذته من بعـده حتى عصر الجوينى لهم رأيان فى هـذه المسالة وليس لهم رأى واحـد .

(١) أنظر شرح المواقف للايجى ج ٨ ، ص ١١١ وما بعـدها وانظر الآمدى ابكار الأفكار ص ٥٨ وما بعـدها وبالمثل مقالات الاسلاميين للاشعرى والابانة وغيرها مـما سيأتى ذكره من المراجع قريبا .

فمرة يثبتون هـذه النصوص على أنها صفات الله تعالى ومرة يؤولون هـذه النصوص أى يستعملون طريق التأويل واظهار المراد منها[1] على أن التحقيق العلمى الصحيح والذى توصلت اليه يثبت غير هـذا وأكبر دليل على ذلك أن كتب الاشعرى موجوده بين أيدينا حتى هـذا الوقت وكذلك الباقلانى والحـق الثابت فى كتبهم أنهم يثبتونها على أنها صفات للذات قولا واحـدا وليس قولين كما ادعى المتأخرون كالآمدى والايجى وغيرهما .

يعلم ذلك بيقين من نظر فى كتب امام أهـل السنة والجماعة أبى الحسن الاشعرى أنه فى كتبه المنسوبة اليه يقطع بهـذا الرأى فليس لـه رايان فى المسألة كما ادعى المتأخرون من علماء الكلام والتوحيد ويؤكد على هـذه الحقيقة التى توصلنا اليها من أن رأيا واحدا وليس رأيين تلك النصوص الموجوده فى كتبه وما أكثرها تحت أيدينـا الآن كالابانه ومقالات الاسلاميين وغيرهما غير أن هـذا المقام يضيق بنـا عن ذكر تلك النصوص فليرجع الى محلها من أراد المزيد[2] وبناء على ذلك نقول أن الرأى الصواب عند الاشعرى والباقلانى والاسفراينى وأئمـة المذهب قبل الجوينى جميعا يذهبون ــ قولا واحـدا ــ الى أنها صفات بل لم يرتضوا التأويل أصلا عندما تعرضوا لشرح هـذه النصوص فالايجى والآمدى ليسا على صواب عندما ذهبا الى أن أرباب المذهب الاشعرى قبل الجوينى لهم رأيان فى المسألة[3] لكن المدرسة الاشعرية بحق قـد تحولت تحولا جـذريا على يد الجوينى ومن بعده وارتضت طريقا جـديدا على المدرسة هـو :

طريق التأويل حيث خالفت بذلك صدر هـذه المدرسة ولذلك أرى أنه من الواجب على حتى يكمل الشوط أن أوضح الطريق الذى سلكته

(1) ابكار الأفكار ص ٥٧ شرح المواقف جـ ٨ ص ١١١١ .

(2) أنظر على سبيل المثال الأشعرى الابانة عن أصول الديانة ص ٣٩ ادارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٤٨ هـ .

(3) راجع مثلا ابكار الأفكار ص ٥٧ شرح المواقف جـ ٨ ص ١١١ .

المدرسة من عصر الجوينى فما بعــده فى هــذه المشكلة فما هو رأى المدرسة الاشعرية اذن ؟؟ وما هو رأيهم فى هــذه النصوص ؟؟

رأى المدرسة الاشعرية فى الصفات الخبرية من عهد الجوينى فما بعــده

سلكت المدرسة الاشعرية مسلكا جـديدا ــ أى من عهد الجوينى وما بعده ــ وتحولت تحولا جذريا اذ خالفت أرباب المذهب الأشعرى فى تلك المسألة من مسائل العقيدة والتى تتعلق بذات الله تعالى نعم آمنوا بأن هناك صفات كمالية ثبتت فى كتاب الله تعالى وسنة نبيــه صلى الله عليه وسلم على سبيل المثال العقل يثبت له صفة العلم على أنها قـديمة وقائمة بذاته تعالى بها انكشاف الموجودات ويرسم الدليــل العقلى لاثباتها ويدعم ما وصل اليه العقل بما جاء فى الكتاب العزيز من مثل قوله تعالى :

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هــو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين »(1) .

وهكذا بقية الصفات الكمالية من مثل قــوله تعالى فى الارادة **« فعال لمــا يريد »**(2) وفى صفة الكلام **« وكلم الله موسى تكليما »**(3) وفى السمع والبصر **« إن الله سميع بصير »** الى آخر تلك الآيات الكريمات التى تتحــدث عن وصف الله تعالى بصفات الكمال ، أما أرباب المذهب من عهد الجوينى حتى وقتنا هــذا فقــد خالفوا المدرسة فى هــذه المشكلة ويعتبر الجوينى أول أشعرى خالف المدرسة اذ انحاز بطائفة أهــل السنة وسلك مسلكا بالامكان أن نصفه بأنه جـديد على مذهب الاشعرية وان شئت فقل هو جـديد على طريق السلف رضوان الله عليهم .

---

(1) سورة الأنعام آية رقم (٥٩) .
(2) سورة البروج آية رقم (١٦) .
(3) سورة النساء آية رقم (١٦٤) .

فهو ليس مفوضا شأن المفوضية ولم يكن مشبها شأن المجسمة ولم يسلك الطريق الوسط الذى سلكه أمام أهــل السنة والجماعة ابو الحسن الاشعرى وأقطاب المذهب كالباقلانى والاسفراينى فماذا أذن عن مذهبه ؟؟ أوطريقه الذى سلكه ؟؟

فالآيات المتشابهة أولها كما أظهر لنا معانيها فمن رأيه أن هــذه النصوص من الآيات والاحاديث التى توهم التشبيه مؤوله عن معانيها ومصروفة عن ظواهرها أن الآيات الكريمات التى يذكر فيها اليــد والجنب والعين والاستواء ومثلها الاحاديث التى فى المعنى ما هى الا مجازات عن المعنى الحقيقى فالحق أن الله تعــالى منزه عن القــدم واليــد والجنب والعين الى آخر ما أثبته المشبهة والمجسمة كما أنهــا ليست صفات خبرية ثابتة للذات العلية زائدة على ماله من صــفات كمالية كما ذهب الى ذلك الشيخ الاشعرى وأئمة المذهب قبل الجوينى بل هى اوصاف يجب رجوعها الى صفات المعانى(١) •

ويذهب الجوينى رضى الله عنه الى أن الاحتمال فى القرآن والسنة الشريفة الصحيحة على ضربين :

الاول : ما يكون الاحتمال فيه لا يناقض العقل شيئا منه وهــذا النوع أو الضرب لا خلاف فى جواز تأويله •

الثانى : ما يناقض العقل أحــد محتملاته فهــذا الذى اختلف فيه أهــل الحق على رأيين فريق يجعله من المتشابه ومن هــنا منــع التأويل وفريق يرى أنه ليس من المتشابه من هنا أجاز التأويل وتأويله على رأى هــذا الفريق يكون ببيان واظهار أحــد الاوجه الممكنة فيه وذلك بعــد القطع ببطلان الوجــه الذى يناقض العقل أليس فى هذا الرأى الذى سلكه الجوينى مخالفة صريحة لرأى الاشعرى ؟؟ بعــد

---

(١) راجع الجوينى الارشاد ص ٤٠ وما بعــدها بتحقيق د. محمــد يوسف موسى طبعة ١٩٥٠ م . وانظر كذلك الشامل فى اصول الدين للجوينى ص ٥٤٢ وما بعــدها بتحقيق د. النشار وآخرين طبعة سنة ١٩٦٩ م .

ما اتضح لنا جليا أنه لم يفوض شأن السلف كما يناهض المشبهة والمجسمة فيما ذهبوا اليه كما أنه لم يجعلها (أى النصوص التى توهم التشبيه) .

صفات خبرية انما مذهبه فيها والثابت بعد الاطلاع على كتبه أنه استعمل طريق التأويل وبيان المراد من هذه النصوص تلك التى تدل بظاهرها على الحدوث والجسمية فى جانب الحق تعالى اسمه أى أن الجوينى فى هذه المسألة يعتبر مؤولا وليس الجوينى وحده فى هذه المسألة بل أئمة المذهب الاشعرى من بعده ساروا على هذا الضرب ذكر ذلك بالتفصيل والتوضيح الفهرى فى كتابه المعروف لنا جميعا (كتاب فيه شرح لمع الادلة)(١) .

كما ذكر ذلك أيضا شيخ الاسلام ابن تيمية فى كثير من مؤلفاته على سبيل المثال نراه يتحدث بكلام طويل عن الصفات الخبرية ويذكر من أثبتها من أئمة المذهب الاشعرى كالشيخ أبى الحسن وتلامذته من بعده كالباقلانى والاسفراينى وفى نهاية المطاف يقول : (ولم يتخلف فى ذلك قول الاشعرى وقدماء أئمة أصحابه لكن المتأخرون من أتباعه كأبى المعالى الجوينى وغيره لا يثبتون الا الصفات العقلية وأما الخبرية فمنهم من ينفيها ومنهم من يتوقف فيها)(٢) .

وفى نص آخر يقول : « وأول من اشتهر عنه نفيها أبو المعالى الجوينى فانه نفى الصفات الخبرية »(٣) .

على أن الجوينى رضى الله عنه يذكر لنا الحجة التى من أجلها خالف شيخ المدرسة الاشعرية ولجأ الى طريق التأويل وبيان المراد

---

(١) الفهرى كتاب فيه شرح لمع الأدلة ص ٣٨ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٥٥) .

(٢) ابن تيمية منهاج السنة النبوية ج ١ ص ٢٠٤ طبع بولاق .

(٣) ابن تيمية موافقة صحيح المعقول للصحيح المنقول ج ٢ ص ١٠ طبع بولاق .

من هـــذه النصوص ، لقـــد فعل ذلك ليقطـــع الطريق على المشبهة والمجسمة الذين أيدوا باطلهم بآيات من كتاب الله تعالى وبمـــا جاء فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث تدعم فريتهم وأكاذيبهم على الذات العلية تعالت وفى نظرهم أن هـــذه النصوص تثبت دعواهم ومن رأيهم أيضا أن القرآن نزل بلغة العرب والعرب لا يفهمون الابهام والغموض الذى يقول به السلف(١) .

لهـــذا كله يرى الجوينى أنه سلك طريق التأويل ورفض طريق السلف حتى لا يتطرق اللبس والابهام « اذ أن الاعراض عن التأويل حـــذرا من موافقة محـــذور فى الاعتقاد يجر الى اللبس والابهـــام واستزلال العوام وتطرق الشبهات الى أصول الدين وتعريض بعض من كتاب الله لرجم الظنون »(٢) .

هكذا يجتمع لدى امام الحرمين الجـــوينى عـــدد من الاسباب والحجج يراها كافية من وجهة نظره لرفض طريق المدرسة الاشعرية فى جعل تلك النصوص صفات لله تعالى زائدة على ماله من صفات الكمال السبع المشهورة بل يميل الى التأويل فى تلك النصوص ويفصح عن معانيها المقصودة منها ، وحتى يتضح الامر أمام القارىء الكريم نضرب هـــذا المثل ليتضح لنـــا المقام على سبيل المثال حـــديث النزول قـــد تناوله رجال المدرسة الاشعرية بالكلام والتوضيح فما هو رأى المدرسة قبل الجوينى ؟؟ وما هو رأى الجوينى نفسه ؟؟ والحق أننا الآن أمام رأيين لرجال المدرسة أى قبل الجوينى وبعـــده وبينهما فرق كبير وبون شاسع فى الرأى فأئمـــة المذهب يجعلون من النزول صفة خبرية لله تعالى زائدة على صفات المعـــانى وها هـــو الاســـتاذ أبو اســـحاق الاسفراينى أحـــد أساطين المذهب الاشعرى قبل الجوينى يرى أن هذا الحـــديث المدون فى كتب الصحاح ولم يعترض عليه أحـــد من أهـــل

---

(١) انظر الجوينى الارشاد الى قواطع الادلة ص ٤٠ وما بعـــدها طبعة سنة ١٩٥٠ م أيضا الشامل فى أصول الدين ص ٥٤٣ وما بعـــدها ســـنة ١٩٦٩ م .

(٢) المرجعان السابقان والصفحات .

الجرح والتعديل وهو مما يقضى به فى القطعيات وليس من أصله أنه يبلغ مبلغ التواتر اذ لو بلغه لاوجب العلم الضرورى ولكنه مما يوجب العلم استدلالا ونظرا[1] .

أما الجوينى رحمه الله تعالى فانه يسلك مسلكا جديدا ليس مشبها ومفوضا كما علمنا فهو يؤول النزول ويبين المراد على معنى نزول رحمه الله أو ملائكة الرحمن أو نزول أمره تعالى اسمه بواسطة ملائكته المكلفين بذلك نستمع اليه يقول فى هذا المقام « ومما يجب الاعتناء به حديث النزول فانه مما روته الائمة فى الصحاح من الاسانيد وهو ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

أنه قال « ينزل ربنا تبارك وتعالى الى سماء الدنيا كل ليلة فيقول هل من سائل فأعطيه سؤله ؟؟ هل من مستغفر فاغفر له ؟؟ الى آخر الحديث الشريف »[2] .

فنرى أن الجوينى نظرته كانت نظرة تأويل وبيان للمراد من النزول على معنى يليق بعظمة الله تعالى فهو ينزه البارى تعالى عن أن يكون النزول فى حقه على معنى التحول بتفريغ مكان وشغل آخر فذلك يحق من صفات الحوادث ، اذ لو جوزنا ذلك فى حقه جل قدره لادى بنا الى القول بحدوث الاله تعالى مع القدح فى الدليل على حدوث الاجسام[3] .

لهذا فانه يميل الى تأويل النزول وتفسيره على معنى نزول ملائكته أو أمره على غرار ما بينا فيما سبق وعنده أن هذا مما تسيغه اللغة واللسان العربى ولا بعد فى ذلك اذ المعلوم حتى عند

---

(1) الشامل فى اصول الدين ص ٥٥٧ وما بعدها .

(2) الحديث رواه مسلم فى الصحيح ج ٦ ص ٣٦ طبعة مصر (باب صلاة الليل) وكذلك رواه البخارى فى الصحيح (كتاب التهجد بالليل) ج ١ ص ٢٠٠ شرح السندى طبع الحلبى .

(3) الفهرى كتاب فيه شرح لمع الادلة ص ٣٧ ايضا الشامل فى اصول الدين ص ٥٥٧ .

من درس ابسط قواعـد اللغة أن فيها المجاز والاستعارة والكناية وفي التنزيل الحكيم يقول تعالى :

« انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خـلاف أو ينفـوا من الأرض »(١) ٠

وليس من العقل أو الفهم أن تقـع محاربة حقيقية لله تعالى ومن يستطيع ذلك ؟؟ لكن المحاربة لله الواردة في الآية الكريمة فهي على معنى محاربة أوليائه وترك أوامره ومبارزته بالمعاصي تبارك أسمه كما حمـل النزول على نزول الملائكة أو على معنى اسباغ الله نعماءه على عباده مـع عصيانهم وتماديهم في غيهم تماما كما أطلق النزول في حق القرآن الـكريم :

« نزل به الروح الأمين على قلبـك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين »(٢) ٠

مـع استحالة نزول الكلام(٣) :

وهـذا واضح لدى من عنده أدنى عقل يفكر ولب يفهم فان الكلام لا ينزل ولا يصعد بل المراد نزول جبريل بالوحي الشريف الذي يحـوي الاوامر والنواهي الالهيه وهكذا رأينا الجويني يستمر في تاويل هـذه النصوص المقـدسه وقـد اكتفيت بذكر بعض النماذج معتمدا في ذلك على النصوص الواردة في كتبه رأسا وكذلك على شراح المذهب من اعلام المدرسة الاشعرية لاثبت للقارىء الكريم أن الجويني سـلك طريق التاويل ويخالف مدرسته التي انتسب اليها ومن أراد مزيد الاطلاع عليه بالرجوع الى كتابيه الشامل والارشاد(٤) ٠

---

(١) سورة المـائدة آية رقم (٣٣) ٠
(٢) سورة الشعراء آيات رقم (١٩٣ — ١٩٥) ٠
(٣) يراجع الارشاد ص ٤٠ الشامل في أصول الدين ص ٥٤٣ ٠
(٤) المرجعان السابقان والصفحات وراجع على سبيل المثال الغـزالي الاقتصاد في الاعتقاد ص ٥٢ تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلاء مكتبة الجنـدي ٠

رأى المدرسة بعد امام الحرمين الجوينى

بالامكان أن نقول ان المدرسة الاشعرية تأثرت تأثرا كبيرا بامام الحرمين الجوينى حيث سارت على نهجه وسلكت طريقه فى تأويل هذه النصوص وبايجاز نقول قد أخذ برأى الجوينى كل من اتى بعده من رجال المدرسة الاشعرية وخالفوا رأى السابقين من اساطين أهل السنة والجماعة على سبيل المثال نرى الآمدى والرازى والغزالى والايجى والتفتازانى جميعا فى كتاباتهم يسلكون ذلك النهج (التأويل) عند الحديث فى هذه النصوص اذ بينوا المراد منها وليس بالامكان أن نشرح اراءهم ونسير معهم حتى نهاية الشوط فى هذا البحث المقتضب فمن أراد المزيد فعليه بالرجوع الى مصادرهم المشار اليها[1] • ونكتفى بضرب مثال واحد وليكن للامام أبى حامد الغزالى رضى الله عنه نراه يقول فى هذا الموقف :

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : ينزل الله تعالى الى السماء الدنيا فلفظ مفهوم ذكر للتفهم وعلم أنه يسبق الى الافهام منه المعنى الذى وضع له أو المعنى الذى يستعار فكيف يقال أنه متشابه بل هو مخيل معنى خطأ عند الجاهل ومفهم معنى صحيحا عند العالم وهو كقوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » فانه يخيل عند الجاهل اجتماعا مناقضا لكونه على العرش وعند العالم يفهم أنه مع الكل بالاحاطة والعلم وكقوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن من بين أصبعين من أصابع الرحمن » فانه عند الجاهل يخيل عضوين مركبين من اللحم والعظم والعصب مشتملين على الانامل والاظفار نابتين من الكف وعند العالم يدل على المعنى المستعار له دون الموضوع له وهو ما كان الاصبع له وكان من الاصبع وروحه وحقيقته وهو القدرة على التقليب كما يشاء كما دلت المعية عليه فى قوله « وهو معكم » على ما تراه

---

(1) شرح المقاصد ج ٢ ص ١١٠ شرح المواقف ج ٨ ص ١١٠ شرح العقيدة الواسطية ص ٧٧ وما بعدها وكذلك أبكار الافكار وشرح لمع الأدلة وغيرها مما سيأتى •

المعية له وهو العلم والاحاطة ولكن من شائع عبارات العرب العبارة بالسبب عن المسبب واستعارة السبب للمستعار منه ٠٠٠٠٠(١) ٠

وتارة أخرى وقفوا عن بيان المراد اشعارا بأن من يعين المراد ويستعمل طريق التأويل فهو على صواب ومن ترك التاويل ولم يعين مع التفويض لعلم الله فهو على صواب ايضا اذ لا ضرر فى الاعتقاد بكل(٢) ٠

وهو ما ظهر بوضوح فى التاليف المتأخرة كجوهرة التوحيد لسيدى ابراهيم اللقانى رضى الله عنه وفى هذا المعنى يقول :

وكل نص أو هم التشبيها   أوله او فوض ورم تنزيها

واضح من كلام الشيخ اللقانى أنه يذكر رأى الفريقين ـ التفويض مع التنزيه والتأويل مع بيان المقصود من النصوص على معنى يليق بجلال الحق عز جلاله وقد علق الشيخ البيجوى شارح الجوهرة على هذا البيت بكلام وجيه ٠

رأيت أن أذكره هنا تتميما للفائدة أنه يشرح أبيات الجوهرة ويعلق على هذا البيت السابق ذكره بما حاصله أن طريقة الخلق أعلم وأحكم لما فيها من مزيد الايضاح والبيان كما ان فيها سدا لابواب الشبهات وقفلا للطريق أمام المجسمة والمشبهة الذين يتذرعون بتلك النصوص من هنا وصف هذا الطريق بانه أحكم لانه يسد المنافذ امامهم ويمنع الشبهات التى ربما قد تطرأ على بعض الافهام كالتى وقعت لهؤلاء المجسمة وأمثالهم أو من سار على دربهم ، ولما كانت هذه الطريقة أحكم وأرجح من وجهة نظره نراها قدمت فى الذكر كما فى البيت السابق ذكره ثم بعد ذلك يتكلم عن طريقة السلف ويصفها بأنها أسلم وفيها الاحتياط فربما يؤول الانسان نصا من

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٥٣ ، ص ٥٤ ٠

(٢) راجع على سبيل المثال الآمدى ابكار الافكار ص ٥٦ مخطوط الرازى المطالب العالية باب الكلام على الصفات الخبرية بمخطوط بدار الكتب تحت رقم (١٩٨٣) علم الكلام ٠

النصوص ويبين المراد منه ويكون ذلك المعنى الذى حدده غير مراد للحق تعالى اسمه من هنا وصفت طريقة السلف بأنها أسلم(١) .

هذا هو نهاية المطاف فى هذه النصوص وهذه هى آراء العلماء فيها وهو ما استطعت أن أفهمه بعد رجوعى الى المصادر الحقيقية التى تحدثت وأفاضت فى هذه المشكلة العقدية المتصلة بذات الحق تبارك وتعالى والله أعلم بالصواب فيها وعلى كل فالمصيب من الفريقين له أجران والمخطىء له أجر ما دامت النوايا حسنة والقصد طيبا والله أسأل ان يفقهنا فى دينه وأن يبصرنا بمواقع الذلل فنتجنبها فهو نعم المولى ونعم النصير ومنه وحده الهداية والتوفيق والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وأتباعه وسلم .

---

(١) ينظر شرح البيجورى على الجوهرة ج ١ ص ١٠٠ المطابع الأميرية سنة ١٩٦٦ م .

ثبت بمراجع البحث

١ ـ القرآن الكريم كتاب الله عز وجل .

٢ ـ صحيح الامام البخاري رضى الله عنه .

٣ ـ صحيح الامام مسلم بن الحجاج النيسابوري رضى الله عنه .

٤ ـ الاقتصاد فى الاعتقاد لحجة الاسلام أبى حامد الغزالى رضى الله عنه .

٥ ـ الارشاد الى قواطع الادلة لامام الحرمين الجوينى رضى الله عنه .

٦ ـ الابانة عن أصول الديانة للشيخ أبى الحسن الأشعرى رضى الله عنه .

٧ ـ أبكار الأفكار للآمدى رضى الله عنه مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٦٠٢) .

٨ ـ تفسير القرطبى رضى الله عنه .

٩ ـ التبصير فى الدين لأبى المظفر الاسفراينى رضى الله عنه .

١٠ ـ شرح المواقف للايجى رضى الله عنه .

١١ ـ شرح العقيدة الواسطية لشيخ الاسلام ابن تيمية بتعليق دكتور محمد خليل هراس .

١٢ ـ الشامل فى أصول الدين لامام الحرمين الجوينى رضى الله عنه .

١٣ ـ شرح المقاصد لسعد الدين التفتازانى رضى الله عنه .

١٤ ـ شرح البيجورى على الجوهرة لشيخ الاسلام البيجورى رضى الله عنه .

١٥ ـ طبقات الشافعية الكبرى للشيخ السبكى رضى الله عنه .

١٦ ـ الفرق بين الفرق للبغدادى رضى الله عنه .

١٧ ـ كتاب فيه شرح لمع الأدلة للفهرى مخطوط بدار الكتب تحت رقم (٢٥٥) .

١٨ ـ مقالات الاسلاميين للشيخ أبى الحسن الأشعرى رضى الله عنه .

١٩ ـ الملل والنحل للشهرستانى رضى الله عنه على هامش كتاب الفصل لابن حزم رضى الله عنه .

٢٠ ـ منهاج السنة النبوية لشيخ الاسلام ابن تيمية رضى الله عنه .

٢١ ـ موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول لشيخ الاسلام ابن تيمية .

٢٢ ـ المطالب العالية للشيخ الرازى مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٩٨٣) علم الكلام .